

رينيه جيرار

## العنف والمقدس

ترجمة سميرة ريشا؛ مراجعة جورج سليمان

(بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩). ٥٧٤ ص. (علوم إنسانية واجتماعية)

السيد يسين(\*)

أستاذ علم الاجتماع السياسي،

ومستشار مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة.

ولقد كان أول عهدنا بكتاب الكذبة الرومنسية والحقيقة الروائية إشارة عابرة إليه وردت في مقدمة كتاب لوسيان غولدمان: من أجل علم اجتماع للرواية، الذي صدر في باريس عام ١٩٦٤. وقد ذكر أنه قد وجد تشابهاً غريباً بين النتائج التي توصل إليها الفيلسوف المجري لوكاتش في كتابه: نظرية الرواية، ونتائج جيرار في هذا الكتاب.

وظنّ في بداية الأمر أن جيرار قرأ لوكاتش وتأثر به، غير أن جيرار أكد له شخصياً أنه لم يسبق له الاطلاع على لوكاتش. ومما يؤيد هذا أن كتاب لوكاتش لم يترجم من الألمانية إلى الفرنسية إلا عام ١٩٦٣، أي بعد صدور كتاب جيرار بعامين على الأقل.

ولعل المشكلة الأولى التي طرحها كتاب جيرار الذي نشير إليه، هي: هل هذا كتاب في الفلسفة اتخذ من الرواية موضوعاً

### - ١ -

تعرفت على البواكير الأولى لفلسفة رينيه جيرار أثناء بعثتي العلمية إلى فرنسا (١٩٦٤ - ١٩٦٧). وجيرار فرنسي، ولكنه هاجر مبكراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل أستاذاً للأدب الفرنسي في جامعات أمريكية متعددة، أبرزها جامعة جونز هوبكنز. وبسبب هذه الهجرة وتأليفه كتباً باللغة الإنكليزية، لم يكن في الستينيات معروفاً في فرنسا.

غير أنه أصدر عام ١٩٦١ كتاباً بعنوان: الكذبة الرومنسية والحقيقة الروائية، أحدث انقلاباً في مجال النقد الأدبي، بل وفي فهم الطبيعة الإنسانية على السواء. ولم يتح لهذا الكتاب، الذي كان بداية شهرة جيرار، أن يترجم إلى اللغة العربية إلا في أيار/مايو ٢٠٠٨، من قبل المنظمة العربية للترجمة، وقام بالترجمة د. رضوان ظاظا.

ولذلك خصّصت له الفصل الثالث من كتابي، وعنوانه: **النقد الأدبي والفلسفة**، وكانت هذه أول مرة يعرف فيها بـ «نظرية جيرار في اللغة العربية».

## - ٢ -

السؤال الآن: ما هو جوهر نظرية «مثلث الرغبة» التي تحوّلت بعد حوالى عشرين عاماً من صدور كتاب جيرار إلى نظرية شهيرة في العلم الاجتماعي بكل فروعه، بما في ذلك علم الاقتصاد، لأنها تكشف بعبقريّة فذة عن البنية العميقة للطبيعة الإنسانية؟

اعتمد جيرار في صياغة نظريته على تحليل عدد من أبرز الروايات العالمية التي صاغت أعلام مجموعة من أشهر الأدباء، هم سرفانتس (في روايته الشهيرة **دون كيشوت**)، وستندال (في رواية **الأحمر والأسود**)، وبروست (في رواية **البحث عن الزمن الضائع**)، وفلوبير (في رواية **مدام بوفاري**)، ودوستويفسكي (في رواية **الإخوة كارامازوف**).

ويبدأ جيرار عرضه لنظريته بتقسيمه الرواية إلى نوعين: رواية «روائية»، ورواية «رومانسية»، وكليهما يقف في قطب مضاد للآخر، كما تقف الحقيقة في مقابل الكذب، ذلك أن الرواية «الروائية» في نظره هي التي تكشف عن حقيقة الإنسان، في حين إن الرواية «الرومانسية» تخفي هذه الحقيقة.

ولكن ما هي حقيقة الإنسان؟

له، أو هو دراسة في النقد الأدبي؟

أجاب عن هذا السؤال المهم - كل من وجهة نظره - كاتبان، أحدهما فيلسوف هو جان كوهن، والثاني ناقد أدبي هو ميشيل كروزيه. ولقد رأى كوهن أن عنوان الكتاب تسبّب في أن يخفي عن الأنظار أهميته البالغة، فمن كان يتصوّر أن وراء هذا العنوان: **الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية**، يوجد، ليس مجرد مفهوم أصيل للرواية، وإنما أيضاً فلسفة جديدة للإنسان؟

أما ميشيل كروزيه، فقد ذهب إلى أنه من العسير تحديد المدرسة أو الميدان الذي ينتمي إليه كتاب جيرار. فهو ككل الكتب الجديدة والجسورة التي تقلب موازين التصنيفات السائدة، ولا تلقي بالألحود التاريخ الأدبي، ولا لمسلّم التشابه التي ينهض على أساسها.

وقد قدم جيرار في كتابه نظرية جديدة تمام الجدة، هي نظرية «مثلث الرغبة» (Désir triangulaire). وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بعرض أبعاد هذه النظرية، وأنا بصدد تأليف كتابي: **التحليل الاجتماعي للأدب**<sup>(١)</sup>.

ويكمن سرّ اهتمامي بهذه النظرية أنني كنت أعرض لإسهامات علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة في مجال دراسة النصوص الأدبية، وأخذت لوسيان غولمان ممثلاً للاتجاه السوسيولوجي بحكم ريادته لهذا الاتجاه.

ولم أجد أفضل من رينيه جيرار لكي يكون ممثلاً للنقد الفلسفي للأعمال الأدبية،

(١) السيد يسين، **التحليل الاجتماعي للأدب** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠). وظهرت طبعة

رابعة له في القاهرة عن دار العين، ٢٠٠٨.

### - ٣ -

ها قد طالت هذه المقدمة عن كتاب جيران: الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية، ودفعتنا بعيداً - إلى حد ما - عن تحليل كتاب: العنف والمقدس. وليس هذا غريباً، على كل حال، لأننا نجد سميرة ريشا، التي ترجمت هذا الكتاب، تقرر في مقدمتها الممتازة أن نظرية «مثلث الرغبة» تعتبر حجر الزاوية في عمارة جيران الأنثروبولوجية.

والواقع أن جيران انتقل من مجال الإنسان، حين حلّل طبيعته، وركّز على أن «المحاكاة» أو «احتذاء الغير» باعتباره بعداً أصيلاً فيها، ولكي يقرر أن المحاكاة ليست - كما تقول سميرة ريشا - وقفاً على العالم الإنساني، لكنها «تكتسب مع ظهور اللغة والفكر الرمزي بعداً ثقافياً واجتماعياً يحول دون اختلاط المملكتين الحيوانية والإنسانية».

ومقولته الجديدة في كتابه: العنف والمقدس أن العنف له طبيعة محاكية، وهو يكمن في أساس كل فكر ديني وثقافي. واستدل على ذلك بتحليل مقارن لعدد من الأعمال التراجيدية والطقوس والأساطير، التي تنتمي إلى بلاد متعدّدة بدءاً من اليونان إلى أفريقيا البدائية.

### - ٤ -

والسؤال الآن: ما هي علاقة المحاكاة بالعنف؟

والإجابة هي أن محاولة الأفراد احتذاء الآخرين، متأثرين في ذلك بالوسطاء الذين قد تتعدّد أنماطهم، من شأنه أن يجعل النموذج المحتذى يدافع عن تميّزه ويمنع من يريد احتذائه من تحقيق رغبته، لأنه لو

توصّل جيران إلى حقيقته بتحليل هذه الروايات الخمس، ووصل إلى نتيجة مهمة هي عدم أصالة الكائن الإنساني. ويقصد بذلك أن البطل الرومانسي يظنّ نفسه أصيلاً، بمعنى أنه يعتقد أنه يستمد رغباته من نفسه هو، غير أن ذلك ليس سوى كذب رومانسي، لأنه في الحقيقة «لا يحدث أنني أرغب في شيء، ولكنه الآخر الذي يرغب من خلالي». وهنا يدخل جيران العنصر الأساسي في تحليله، وهو فكرة «الآخر». فعنده أن مردّ عدم أصالتنا ككائنات إنسانية، أننا لا نخلق رغباتنا، وهي بالتالي لا تنبع من ذاتنا، ولكنها دائماً مستعارة من الآخرين.

بعبارة موجزة، تتمثل نظرية «مثلث الرغبة» في كونها تتكون من مثلث له أضلاع ثلاثة: الأنا، والآخر، والوسيط. بعبارة أخرى، لا يمكن للفرد أن يرغب في شيء إلا من خلال «وسيط» يراه يملك شيئاً ويريد أن يقلّده. قد يكون هذا الوسيط هو روايات الفروسية التي كان بطلها أماديس الفارس الأسطوري بالنسبة إلى دون كيشوت، وقد يكون هو الروايات الرومانسية التي قرأتها إيما بوفاري، أو استيحاء نماذج من الأسرة، كما فعلت ماتيلدا دي لامول في رواية البحث عن الزمن الضائع.

ويفرّق جيران بين الوساطة الخارجية والوساطة الداخلية، ومن ناحية أخرى يربط علاقة الوساطة بتركيب المجتمع، ويقرّر أنه في المجتمع الطبقي كان يسمح لمن هو أدنى أن يقلّد نموذج من الطبقات العليا بغير أن يتنافس معه. أما في المجتمع الحديث الديمقراطي، فإن الوساطة بالضرورة تقع بين «النظراء»، مما يخلق حالة من التنافس الحادّ العقيم.

المجتمعات العربية الطبقية، لدرء شبهة الفساد عن مجمل النخبة السياسية الحاكمة أو المتميزة، يضحي أحياناً بأحد رجال الأعمال البارزين، ويقدم إلى المحاكمة الجنائية بتهمة، مثل الرشوة أو إهدار المال العام أو الفساد، ويتم التشهير به في وسائل الإعلام، وكأن مجتمع النخبة السياسية والاقتصادية يطهر نفسه بتقديمه كـ «كبش فداء» لكي يهدئ من ثورة الرغبات الجامحة والأحقاد الدفينة.

يقرر ربنيه جيران أنه في العديد من المجتمعات تلقي مسؤولية الشرور على واحد من الأفراد تمهيداً للتخلص منه، وقد يكون ضحية بريئة، ولكنها تعاقبه بالقتل أو الطرد حتى الموت. غير أنه مع تطور المجتمعات، أصبح «كبش الفداء» الذي تقرر عقابه ليس من أعضاء المجتمع، ولكنه قد يكون من أسرى الحرب أو المهمشين أو المنبوذين، وبعد ذلك قد يُتغاضى عن «كبش الفداء» الإنسان بضحية حيوانية، بحكم أن الصلات بين العالمين الحيواني والإنسان قوية.

ويتعقّب جيران عبر مسيرة أنثروبولوجية طويلة ومعقّدة، وتحليل دقيق للأساطير، ارتباط العنف بالمقدس، من خلال دراسته المقارنة للعديد من الأديان والثقافات، بصورة يصعب علينا في الحيز المتاح لنا أن ندخل في تفاصيلها المعقّدة.

## - ٥ -

لقد قدم جيران في كتابه: **العنف والمقدس**، وفي كتبه اللاحقة، نظرية متكاملة عن دور العنف في المجتمعات البشرية تستحق التأمل، وخصوصاً في ما يتعلق بطبيعة العلاقات الدولية التي سادت في القرن العشرين، حيث قامت الحرب العالمية

تساوى الأفراد جميعاً في تملك الصفات أو الميزات الخاصة بالنموذج، فإنه يفقد تميّزه، ومن هنا تبدأ دائرة العنف الشريرة.

صاحب الامتياز يزود عن امتياز، ويمنع المعجب به الذي يريد احتذائه في تملك ما يملكه، والمعجب لا يقبل إلا أن يتساوى بالنموذج، وإلا كان ذلك اعترافاً منه بالقصور والدونية. ومن هنا ينشأ الصراع، الذي هو نتيجة حتمية لتركّز رغبته على موضوع واحد. ونجد تطبيقاً لذلك في المجتمعات الطبقية الحديثة، حيث تخلق النخبة المتميزة لنفسها نوادي خاصة لا يدخلها غير أعضائها، تأكيداً لتمييزها الطبقي، كما أنه في بعض العواصم العربية الآن، مثل القاهرة، هجرت النخبة المتميزة قلب المدينة وبنت لنفسها في ضواحيها أحياء متميزة، زاخرة بالفيلات والقصور، ويمنع دخول الأحياء المتميزة على الناس العاديين، لأنها مسوّرة بأسوار حصينة، ويقف على أبوابها مسؤولون عن الأمن لمنع المتطفّلين من الدخول.

إن وجود هذه النماذج الإنسانية من أعضاء النخبة المتميزة يدفع العديد من الأفراد إلى محاولة تقليدها، سواء بطريقة مشروعة أو غير مشروعة، ومن هنا يشيع الفساد في المجتمع، وتزداد معدلات العنف، ويصبح السياق الطبقي على أشده بين شرائح اجتماعية متعدّدة، للظفر بالامتيازات الطبقية النادرة. وفي ذروة هذا الصراع قد يبتكر المجتمع وسيلة تقيه خطر التفكّك والانهييار، وذلك بإلقاء مسؤولية ما حدث من شرور على أحد الأفراد تمهيداً للتخلص منه.

وفي الممارسات المعاصرة، في بعض

الاختيار أولاً على أفغانستان، وتمّ غزوها عسكرياً وإسقاط نظام طالبان.

غير أن أزمة البحث الأمريكي عن عدو، وخصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، جعلتها تبحث عن ضحية جديدة، فوق الاختيار على العراق الذي تمّ غزوه واحتلاله بالصدّ من كل قواعد الشرعية الدولية.

وهكذا يمكن القول إن نظرية جيران **العنف والمقدس**، يمكن تأويلها لكي تصبح أساساً لفهم غرور القوة والعنف الأعمى في عالمنا المعاصر □

الأولى بكل بربريتها، والحرب العالمية الثانية، التي انتهت بإلقاء الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على اليابان، لتجبرها على الاستسلام من ناحية، ولإظهار قوتها الفاتكة من ناحية أخرى.

ولو بسطنا من نطاق نظرية جيران لتحليل السلوك الأمريكي في بداية الألفية الثانية، لقلنا إنه بعد الحوادث الإرهابية التي وجّهت ضد الولايات المتحدة الأمريكية في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كان لا بد من البحث عن «كبش فداء» لطرح «الأرواح» الإرهابية الشريرة من العالم، ووقع

## صدر حديثاً

### التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولي

الكتاب السنوي ٢٠٠٩

يقدم كتاب سيبري، ٢٠٠٩، تقييماً شاملاً وعميقاً للتطورات التي طرأت على الأمن الدولي، والإنفاق العسكري والأسلحة، ونزع الأسلحة.

ويعكس، هذا المجلد، تزايد أهمية الأمن الإنساني، وتحديات الصراعات داخل الدول، كما يتعمق - بشكل شبه مسحي - في رصد أنماط الصراعات المسلحة واتجاهاتها، وشرعية عملية السلام، ومسارات الإنفاق العسكري، وإنتاج الأسلحة، وعمليات نقل الأسلحة التقليدية، والقوى النووية العالمية، والتطورات الآيلة إلى الحدّ من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية والتقليدية، إضافة إلى الاهتمام بنزع الأسلحة.

وقد اقترن هذا الإصدار، المميّز، وهو الأربعون، لكتاب سيبري، بنشر مؤشر السلام العالمي ٢٠٠٩، وهو مقياس فريد لسلامة الدول، يعده معهد الاقتصاد والسلام.



٨٤٨ صفحة

التمن للأفراد: ١٨ دولاراً

التمن للمؤسسات: ٢٨ دولاراً

أو ما يعادلها